



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 23/09/2023

تاريخ القبول: 30/06/2024

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

التمثيلات الثقافية لثنائية الأنا والآخر في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان

أبو الهوى

Cultural representations of the duality of the self and the other in the novel "While the World Sleeps" by Susan Abu Al-Hawa

مريم العرجاني¹، نسيم علوي²¹ مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي.جامعة سكيكدة (الجزائر) m.lardjani@univ-skikda.dz² جامعة سكيكدة (الجزائر)، n.alloui@univ-skikda.dz

الملخص: تهدف الدراسة إلى تناول ثنائية الأنا الفلسطينية والآخر اليهودي وعلاقتها التضادية في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى من خلال تقصي جملة الأنساق الثقافية التي تخللت المتن الروائي. حيث كشفت لنا العلاقة التضادية الصراع والصدام بين الشخصيات المتعارضة أيديولوجيا، وحضاريا، وثقافيا. وخلصنا أن رواية "بينما ينام العالم" لروائية سوزان أبو الهوى "تحمل من المشاهد و الأحداث الواقعية والتاريخية ما يجعلها تحقق أهدافها الثقافية للمتلقى، وتبرز أحقية الذات الفلسطينية بالوطن مقابل الآخر المحتل

الكلمات المفتاحية: الأنا والآخر، أيديولوجيا، الأنساق الثقافية، رواية، سوزان أبو الهوى.

ABSTRACT

The study aims to address the duality of the Palestinian self and the Jewish other and their antagonistic relationship in the novel "While the World Sleeps" by Susan Abu al-Hawa by investigating the set of cultural patterns that permeate the novel's text. Where the antagonistic relationship revealed to us the conflict and clash between ideologically, civilizational, and culturally opposing personalities. We concluded that the novel "While the World Sleeps" by Suzan Abu Al-Hawa contains realistic and historical scenes and events, which makes it achieve its cultural goals for the recipient, and highlights the right of the Palestinian self to the homeland versus the occupying other.

Keywords: the self and the other, Ideology, cultural patterns, novel, Suzan Abu Al-Hawa

1. مقدمة:

شهدت الرواية العربية المعاصرة تطوراً وتغييراً على مستوى تشكيلاتها السردية من كونها صيغة سردية تعكس تطلعات المجتمع العربي وتحاول تفسيرها، إلى صيغة ثقافية تكشف عن رؤى وعوالم مجهولة تسيرها أجنحة ومؤسسات سياسية وأيديولوجية مركزية هدفها السيطرة والهيمنة على الأنا المهمش فكرياً، فجاءت الرواية العربية المعاصرة لتنتفع على عديد الموضوعات والقضايا كالخطابات الوطنية، والقومية الداعية إلى تحرير الأنا العربية من تبعية الآخر، وبناء مجتمع عربي مستقل له حدوده وأبعاده الثقافية المميزة له. ومن هذا المنطلق جاء موضوعنا لدراسة التمثيلات الثقافية لثنائية الأنا والآخر في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى، وهي من أبرز الروايات الفلسطينية اللواتي عشن آلام المنفى، واللجوء، والشتات، لهذا جاءت روايتها - بالرغم من طابعها التخيلي في بعض العناصر السردية - وكأنها عبارة عن مسرد تاريخي نقل هموم الشعب الفلسطيني منذ النكبة إلى عصرنا التي تجاوزت فيه الذات الفلسطينية حيز المكان إلى محاولة البحث عن هويتها المشتتة. إلا أن الروائية لم تقف عند حدود الأنا بصورتها النمطية التي رسمها الآخر عنها؛ بأنها ذات منهزمة مغلوبة، بل أعطتها طابع الثورة والرفض لسلطة الهيمنة المركزية الإسرائيلية، فقد رسمت الرواية مشهد ثقافي يشهد انقلاباً في الموازين بين ثنائيي الأنا والآخر، حيث صورت الآخر بسمات الجبن، والغدر، الخداع... في مقابل الأنا المضحية الطامحة لاسترداد هويتها.

فرواية "بينما ينام العالم" تعكس صمود الشعب الفلسطيني في الدفاع عن مواقفه الوطنية، وقناعاته الاستقلالية رغم محاولات الكيان الإسرائيلي طمسها وقتلها داخل الذات الفلسطينية باستخدام إيديولوجيات سياسية اضطهادية، فوجد الإنسان الفلسطيني أن الحل الوحيد لاسترجاع ذاته وهويته لا تكون إلا من خلال معرفة الآخر الصهيوني بمكوناته العقائدية، والسياسية، والأيديولوجية، وهذا ما سعت إليه دراستنا.

ومن هذا المنطلق نطرح الإشكالية الآتية:

- كيف تجلت ثنائية الأنا والآخر في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية حاولنا تقسيم هذه الدراسة إلى عناصر أساسية تخدم الهدف الرئيس منها، فقد تناولنا في الجانب النظري: العلاقة بين الأنا والآخر من حيث الرؤية؛ أي كيف ينظر كل منهما للآخر، وكذلك تطرقنا في هذا الجانب إلى أهم المبادئ والأسس التي تستطيع من خلالها الذات استعادة مركزها، أما الجانب التطبيقي فقد ركزنا على إبراز أهم التمثيلات الثقافية لثنائية الأنا والآخر في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى. مما جعلنا نستعين بمنهج النقد الثقافي كونه المنهج الأقدر لدراسة هذه القضايا، والكشف عن المهمش والمسكرت عنه في الرواية.

أولاً: العلاقة بين الأنا والآخر:

إن التمثيلات التي يحملها كل من الأنا والآخر عن بعضه تعود إلى تاريخ قديم ارتبط بالاحتكاك والمعاملات الاقتصادية والسياسية بين العرب والغرب، كما ارتبط بالحروب، ليرتبط في العصر الحديث بفن الرحلات ببعديها المعرفي الاستكشافي الأركيولوجي، والآخر الاستعماري الذي اهتم بالبحوث العلمية لأغراض سياسية اجتماعية وثقافية. لتصبح

ثنائية الأنا والآخر في عصرنا من المباحث الثقافية والحداثية التي تتقاطع في مقاربتها تخصصات معرفية، وثقافية، وعلمية متعددة، وفي مقدمتها الدراسات النقدية الاستشراقية، وخطابات ما بعد الاستعمار الذي أسس لوعي جديد من التصورات والأحكام المتعلقة بهذا المبحث الأدبي والنقدي.

1- الأنا من منظور الآخر:

تتعدد مفاهيم الأنا بتعدد مفهوماتها في الفلسفات والنظريات النفسية والاجتماعية والأدبية، فالأنا عموماً " تعبير يعني الذات الواعية. وقد يستخدم المصطلح ليشير إلى تلك السمة أو ذلك المكون من مكونات الشخصية الذي يسيطر بأكثر الطرق مباشرة وفورية على الفكر والسلوك، فهو ((الأنا)) التي تشعر وتفكر وتميز الشخص عن الذوات الشخصية الأخرى. " (فتحى، 1986، صفحة 47) ويقصد هنا بالأنا الواعية الذات التي لها خصوصيتها وهويتها الثقافية التي تميزها عن الآخر المختلف عنها إيديولوجيا وفكريا وعقائديا وحضارياً.

إلا أن النظرة إلى الأنا تظل مشدودة بما يصدره الآخر من أحكام وتصورات فالذات " تظل محكومة بالمبحث عن ((الضد)) ولا تتبلور الهوية (الوطنية) إلا من خلال عناصرها الذاتية وإنما من خلال اكتشاف خصم وتحديد، وتحاول تمييز نفسها منه. " (ليب، 1999، صفحة 337) بمعنى أن هناك رابط بين الهوية والآخر وهو رابط التمايز والاختلاف، فكلما أدركت الأنا وجود الآخر، كلما حاولت بناء، وتطوير، وإثبات ذاتها الثقافية المتميزة عن هوية الآخر.

وهذا ما يتضح في أعمال المستشرقين الذين عملوا على التركيز على مبدأ التقسيم الجغرافي والاختلاف الثقافي الذي ساعدهم على خدمة مصالحهم، واستمرارية نفوذ الغرب على الشرق، إذ أن غياب الشرق يستلزم بالضرورة عدم وجود الغرب، الذي يتحدد مركزته وقوته إلا بوجود الصراع المستمر بينه وبين الشرق، إذ أنتج التصور الغربي (الآخر) صوراً تنميطية دونية في النظر للأنا الشرقية، من منطلق أن الشرقي يعد إنساناً " متخلفاً لا عقلانياً وشهوانياً تدفعه غرائزه للبحث عن النساء أينما حل، فهو كائن ليس له مؤهلات نفسية وفكرية وثقافية ما يمكنه من فهم الذات والتاريخ والعلاقات الاجتماعية، بل يلوذ بظل صنمات تاريخية بائدة، إذا تطور بطريقة ما فإن تطوره لا يكون إلا تطوراً معاقاً أو مشوهاً، إن خلاصه الوحيد هو تقليد الغرب والاقتدار بنماذجه والإذعان لسلطانه. " (الخليل، 2023، صفحة 101) ولعل هذا التصور الاستعلائي للآخر الغربي، جعله يبيع مشروعية الاستعمار على الشرق، وحمل ورقة الحجة للدفاع عن نفسه بأنه استعمار جاء من أجل إخراج الشرق من سباته، وإنقاذه من جهله وتخلفه وفقره، بتعليمه وحماية تراثه في مكاتبهم الأوروبية. الأمر الذي جعل الأنا العربية عاجزة على النهوض بسبب شعور الدونية والهامشية التي تجعله في تبعية دائمة للنموذج الحضاري الغربي.

إن الصور التمثيلية التي قدمت بها الذات العربية في خطاب الآخر أغلبتها صوراً مشوهة تعكس الحقد الدفين للغرب اتجاه الإسلام والمسلمين وهذا ما أشار إليه المستشرق مارسيل بوازاري في كتابه " تحليل بعض الصور عن الإسلام في ضوء مكونات الرأي العام الغربي "، يقول: " أن المسلمين لا يحملون في أعماقهم أفكاراً مطبوعة ومشوهة عن الغرب بقدر ما يحمل الغربيون منها عن الإسلام، وذلك لعدة أسباب ثقافية وتاريخية. " (الفيومي، 1993، صفحة 29) إن

هذه الصور المشوهة للإسلام عند الآخر ليست صورا اعتباطية، وإنما هي تمثيلات تعود إلى أسباب ثقافية، وحضارية، وتاريخية؛ ذلك من منطلق أن الإسلام منذ ظهوره يعتبر منافسا للآخر الغربي، ولعل هذه العدائية المخزونة في نفسية الآخر الغربي تتجاوز السبب الثقافي، والديني إلى عداوة أوروبا للإسلام في بعدها السياسي والأيدولوجي والاقتصادي ذلك لما حققه الإسلام من فتوحات إسلامية، وتخليص التاريخ العربي من وطأة استعمار الفرس والرومان للبلاد العربية والإسلامية وانتصاراته على الغرب في الحروب الصليبية.

بالرغم من الصورة التمثيلية التخيلية ذات الطابع الاستعلائي التعصبي للآخر الغربي اتجاه الذات العربية، نجد أن هناك عديد من علماء الغرب المنصفين في نظرهم للعرب والإسلام، حيث ترى هذه الفئة أنه لا بد من إعادة النظر في تاريخ الفكر والثقافة العربية والإسلامية، وأنه لا بد للآخر الغربي من إعادة البحث في التراث العربي من خلال قراءة النصوص العربية عن الأدب، وتاريخ العرب، لا الاستماع إلى الأقوال والروايات التي يدرسها الغرب لأبنائه وينشرها على وسائل الإعلام من أجل تشويه حقيقة الإسلام والحد من انتشاره، وهذا ما أشار إليه المستشرق بول هازار في قوله: "والحقيقة أن الإسلام دين منطقي معقول، دين نبيل جميل، وأكثر من ذلك فإن الحضارة الإسلامية جديرة بالإعجاب. فبعدما طغت الجاهلية على العالم - يتساؤل بول هازار - من الذي كان حفيظا على حقوق التفكير والثقافة؟ يجيب: هم العرب." (الفيومى، 1993، صفحة 404) وتبقى هذه الصورة الحقيقية التي يراها الآخر المنصف في نظرته إلى العرب والإسلام من الصور النادرة إذا ما قورنت بالصور التمثيلية، والتشويهية، والدونية التي يرسمها الآخر في أذهان وعقول شعبه، وهذا ما نجد له صدق في الخطاب الاستشراقي الغربي.

2- الآخر من منظور الأنا:

إن نسق الآخر يعد أحد الموضوعات المتجددة في الفكر الإنساني والتاريخ العربي قديمه وحديثه شغل اهتمام عديد العلماء المسلمين حول تحديد خصوصيته، وكيفية التعامل معه، ليصير في ظل ما يشهده العصر الحالي من تحولات تاريخية على مستوى المركز والهامش أحد الإشكالات الثقافية التي طرحتها نظرية ما بعد الكولونيالية، التي تسعى لدراسة التصور الغربي في علاقته مع الفكر العربي وفق مقاربات نقدية وأدبية ذات دوافع وأبعاد أيديولوجية وثقافية وحضارية متعددة يخفيها الآخر الغربي.

وبالتالي فإن الآخر يعد من أبرز المصطلحات الثقافية تداولها في الفكر النقدي، ويعرف الآخر في أبسط صوره " هو كل من لا ينتمي إلى موطن الذات، ولا يحمل هويتها، ولا ينتمي إلى خصائصها الحضارية والثقافية والاجتماعية والسياسية. وكانت له تطلعات أو رؤى تتعارض مع المصلحة القومية العليا للعرب." (الشبلي، 2019، صفحة 18) فالآخر هنا كل ما يناقض الذات العربية ثقافيا سواء كان الآخر في تعايش مع الذات أو كان خارج الوطن لأن المجال الثقافي لتحديد الآخر متحرك ومتغير لا يسير بالضرورة وفق مرجع أو معيار محدد، فالآخر قد يتحدد وجوده أحيانا بمعيار ديني أو وطني أو قومي. والأساس الرئيسي لوجود الآخر " هو أن توجد الذات أولا، ووجود الذات يستلزم الوعي بها، وهذا الوعي يقتضي الوعي بالآخر بالضرورة. وبما أن الذات ليست جوهرًا ثابتًا فإن الآخر كذلك ليس ثابتًا (...). وقد يتحدد على أساس قبلي أو ديني أو قومي وهكذا يكون الآخر هو من يختلف عنا في الشخصية أو القبيلة أو الدين

أو القومية. " (كاظم، 2004، صفحة 313) وهذا يبين أن وجود الذات والوعي بها لا يتم دون عملية إدراك الآخر الذي يكشف لها عناصر الاختلاف الثقافي بينها وبينه كالدين، والوطن، والعرق، والقبيلة، الانتماءات السياسية والقومية... وغيرها.

منذ عصر النهضة العربية والآخر يحمل طبيعة مزدوجة بالنسبة للأنا، أحيانا يأتي في صورة العدو، وتارة في صورة النموذج الذي يحتذى ويقتدى به، فالآخر الغربي " لم يكن يقدم نفسه في صورة واحدة، بل لقد كان ولا يزال يحمل بالنسبة إلى مشروع النهضة العربية مظهرين متناقضين: مظهر يمثل العدوان والغزو الاستعماري والاحتكار والهيمنة.. الخ، ومظهر يمثل الحداثة والتقدم بكل قيمها العصرية المادية والمعنوية كالتقنية والعلم والديمقراطية والحرية.. الخ. " (الجابري، 1989، صفحة 27)

أصبح الآخر الغربي في زمننا الراهن بفضل التقدم والتطور الذي أحرزه في جميع ميادين الحياة، جزءا من كياننا، كل هذا التطور جعل الأنا تنظر إليه بانهار لدرجة التماهي فيه دون قيد أو شرط، ودون وعي منها أن هذا التأثير الغربي في نط عيشها، وأساليب سياستها وتديرها لشعوبها، وتحديد مناهج تفكيرها هو نوع من الهيمنة التي استطاع الآخر الغربي فرضها على الأنا العربية. والهيمنة التي يقوم بها الآخر لا يمكن أن تحقق مفعولها الخالص ما لم تقدم بطريقة تجعلنا نتقبلها كما يرى أنطونيو غرامشي " أن السيطرة لا تتم بسبب قوة المسيطر فحسب ولكنها أيضا تتم من بسبب قدرتها على جعلنا نقبل ونسلم بوجهاتها. " (الغدامي، 2014، صفحة 18) وهذه النظرة تعكس تصور الخطاب الاستشراقي عن الشرق رغم بعده عن الحقيقة إلا أنه مارس تأثيره وكرس هيمنته على الإنسان الشرقي وهذا ما يصطلح عليه ادوارد سعيد بمصطلح "شرقنة الشرق لنفسه" أي أن الشرقي أصبح ينظر لنفسه وعالمه من خلال اللوحة التي رسمها الآخر عنه، وبالتالي استطاع الغرب أن يفرض هيمنته على الأنا.

ويرى عبد الله العروي أن الآخر الغربي الذي يمثل النموذج والفكر الحداثي أبحر الأنا في جميع المجالات يخفي خلف وجهه الإيجابي جوانب سلبية تتمثل في " استعمار الشعوب المستضعفة واستغلالها، وإجهاد محاولاتها للنهوض والرقى، والاحتباس منها بوصفها تمثل عدوا مفترضا، وتكريس تبعيتها له، والنظر إليها بوصفها عوالم المتعة الفولكلورية. لم تعمل هذه العوامل وغيرها إلا على توطد التيار التقليدي وإخفاق المشروعات الحداثية. " (الداهي، 2013، صفحة 187) بالرغم مما يوفره الآخر الغربي للأنا من إمكانات مادية تقنية، وقيم ثقافية جديدة باسم الحضارة وخدمة الشعوب المستضعفة في تقرير مصيرها، إلا أن النظرة المهيمنة للأنا اتجاه الآخر تظل عدائية، بسبب النظرة الفوقية الاستعلائية للآخر التي تسعى إلى التقليل من شأن الأنا العربية وتشويه هويتها الثقافية والتاريخية، وتذويب الأنا فكريا وجعلها هامشا وتابعة له.

ثانيا: مبادئ وأسس استعادة الأنا العربية مركزيتها الثقافية:

من أهم الأسباب التي أدت إلى تبوأ الأنا العربية مكانة هامشية على المستوى الحضاري والثقافي هو تفریطها في إرثها التاريخي والإنساني الذي مكنها من القيادة وريادة العالم لقرون عديدة، لتعيش حاضرا سنوات التخلف، والاستبداد، والتبعية الفكرية والثقافية من طرف الآخر. ولعل من أسس استعادة الأنا لمجدها ومكانتها الرائدة بين الأمم

لا تكون إلا بالعمل على مشروع قومي حضاري يعيد للأمة قيمها وهويتها، وينقلها من مرحلة التقليد والتبعية للآخر إلى مرحلة الابتكار والريادة، ولا يتم التأسيس لهذا المشروع إلا من خلال جملة من المبادئ:

- التراث والتجديد: يرى حسن حنفي أن الأيديولوجيا التي يجب أن نركز عليها في النهوض من واقعنا المتأزم ومن النمطية الفكرية الغربية في جميع المستويات يقترح مشروع " التراث والتجديد" الذي يقصد به: "إعادة بناء تراثنا القديم بأسره، بهدف تحويل العلوم العقلية القديمة إلى علوم إنسانية معاصرة، بدايتها الوحي وغايتها الأيديولوجيا. فالأيديولوجيا عند حسن حنفي علم عملي ونظري على السواء والوحي علم المبادئ العامة، التي يمكن تأسيس العلم ذاته، والتي هي في الوقت نفسه قوانين التاريخ وحركة المجتمعات. والوحي هو منطق الوجود المميز لحضارتنا، ومهمتنا تحويله لعلم شامل/أيديولوجيا شاملة، فيتحول إلى حضارة لها بناؤها الإنساني المطابق لحاجات العصر." (عطية، 1997، صفحة 182) فالهدف من هذا المشروع استعادة الأنا مركزها الحضاري الذي سلبته منها القوى الغربية فغدى هامشا من خلال إعادة إحياء تراث الأنا والتجديد فيه بما يواكب العصر، ورسم حدود الأنا انطلاقا من الوحي. فاجتماع عنصري الوحي والتجديد يسهم في خلق أيديولوجيا شاملة وكاملة قادرة على استيعاب كل التوجهات الثقافية للأنا في مواجهة الآخر، وزعزعة الموازين ليصبح الآخر الغربي موضوع دراسة المشروع الثقافي للأنا العربية.

- التخلص من الذات المتضخمة: لن تستطيع الذات العربية العودة إلى مركزها ما لم تتخلص من أزمة الذات العربية المتضخمة، وهذا ما جعلها تعيش واقع الانكسارات على فترات متتالية كأزمة الخليج الأولى والثانية، فبدلا من اتجاه الذات العربية إلى تصالحها مع ذاتها على أساس الوحدة القومية " لمعرفة مصادر تصوراتها الذاتية واتجاهات صورها المغلوطة، كان انشغالهم على دراسة التصورات الخارجية والصور العامة حولها، في بحث، وإعادة بحث، ما ترسخ في ذهن الآخر نحوها باعتباره، وحده، مصدر الإدراكات الخاطئة، ومغذي الصور النمطية السلبية جميعا." (ليب، 1999، صفحة 174) فالذات العربية ذات مجزئة ومشتتة داخليا، متضخمة خارجيا لأنها تنظر لنفسها من منظور الآخر الذي يعمل على إصدار أحكام وتصورات خاطئة تجعلها تشعر بالعجز والتبعية الدائمة له. وتخلصها من ذاتها المتضخمة لا يكون إلا بالعودة إلى تاريخها الإسلامي التي شهدت فيه الأمة العربية أوج وحدتها الاجتماعية، والسياسية، والحضارية، لأن الإسلام في تلك الفترة قضى على النزعات العصبية القبلية التي كانت سببا في تفككها وهذا ما أكدته جادفري جانسن أن الإسلام " قد تمكن من الناس لأنه رشد وعزز البنى الاجتماعية مثل الأمة والعائلة الممتدة والعشيرة والقبيلة، وهذه المؤسسات الاجتماعية بدورها دعمت وغذت الوجود الإسلامي." (عرفة، 2021، صفحة 24) حيث نلاحظ أن هذه الوحدة القومية قد تلاشت مع دخول الاستعمار الأجنبي للبلاد العربية، وانتشار قيم الآخر الغربي القائمة على التفكك والتجزئة للعالم العربي من خلال نشر منظومات فكرية جعلت المسلمين ينشغلون على حال الأمة، وعن القضايا الكبرى التي جاء بها الإسلام، فقد استطاع الآخر نشر قيمه الفردانية الغربية حتى يضمن هيمنته ونفوذه على العالم، حيث أن الأيديولوجيا الفردانية للآخر أدت إلى تشتت الدول العربية من الداخل والخارج وخير مثال صراع الشعب الفلسطيني للآخر الإسرائيلي لوحده وكأن فلسطين تحمل هوية دينية وحضارية تختلف عن هوية باقي الدول العربية. وحينما نود تطبيق هذا المشروع الحضاري القومي حول المصير الفلسطيني كونه النموذج الذي سنعمل عليه في الجانب التطبيقي للمداخلة فإنه لا يتم إلا من خلال اتحاد المثقف الفلسطيني داخل الأرض المحتلة كونه الأقرب إلى

العدو مع المثقف العربي خارج الأرض وأن توضع فكرة الذاتية المتضخمة جانبا ويكون تفكيرهم موجه نحو مصير واحد، وهدف مخطط له عن طريق الثورة وفي هذا يقول العجلوني إبراهيم: " القضية ليست قضية أشخاص بل قضية مصير وهذا ما يفرض على كل من يدعي أو يزعم أنه مثقف أن يضع قضية الذات في مرتبة ثانوية، وأن يحاول أن يكون آمينا للثورة." (عبده، 2021، صفحة 642) وبالتالي فإن تشكل الذات المتكاملة عربيا ذو هوية ثقافية قومية إسلامية لا تقبل التجزئة والتشتت لا تتم إلا من خلال الوعي الجمعي للثورة الذي يتشكل عن طريق الاتحاد الفكري بين المثقف العربي والمثقف الفلسطيني.

-التمسك بالهوية من خلال البحث في الهوية لا عنها: يرى محمد راتب الحلاق أنه لا بد من البحث في الهوية لا عنها من أجل الذات في نظام عالمي مسيطر، أكثر مما هو تحديد هوية لأن " البحث في الهوية بحث معرفي، أما البحث عن الهوية فبحث أيديولوجي غالبا. البحث في الهوية بحث صنع لهذه الهوية، ومتابعة لصنعها باستمرار. أما البحث عنها فيعني أن الهوية منجزة ولكنها ضائعة يجب البحث عنها لاستردادها." (الحلاق، 1997، صفحة 53) فالهدف من البحث في الهوية هو عملية النهوض بالأمة من خلال وحدة الانتماء لا وحدة التمايز والاختلاف بين أفراد الأمة (الأنا القومية الواحدة)، ولهذا لا بد على الذات العربية أن تنطلق من مرجع واحد، يوصلها إلى هدف مشترك ألا وهو تحقيق هوية قومية واحدة لها خصوصيتها الحضارية والفكرية الخاصة بها.

كما ظهر النقد العربي الإسلامي في محاولة منه في تعميق وعي العرب بفكرة التمسك بالهوية العربية، بعد ظهور تيار الاستشراق الذي كان هدفه الأساسي تبشيرا يستهدف تاريخ الحضارة والهوية العربية والإسلامية يقول محمد عابد الجابري: " لا يطلب الإنسان التاريخ لذاته، بل يحاول أن يحتزله في أصول يعيد إحيائها لدرء المخاطر النظرية الوافدة، وبصير الماضي ركيزة لتدعيم الحاضر وإثبات الذات." (الجابري، 1989، صفحة 26) وبالتالي فإن تمثل الذات العربية واسترداد مركزيتها لا تكون إلا باستدعاء الذات التراثية التاريخية.

ثالثا: التمثيلات الثقافية لثنائية الأنا والآخر في رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى

تعد علاقة الأنا والآخر من أبرز القضايا التي يبحث فيها النقد الثقافي، من خلال تمثيل هذه الثنائية في العمل الأدبي عبر أنساق ثقافية، تشكل في مجملها بنية نصية، تستدعي من الناقد أن يكشف عن مضمراتها ويرصد علاقتها بالأنساق الواقعية. وتمثيل الروائية سوزان أبو الهوى في رواية "بينما ينام العالم" ما هو إلا عمل إبداعي يعيد تشكيل الواقع عبر صور، ونماذج شخصيات متخيلة تتضمن أنساق ثقافية وإيديولوجية متعددة. وتظهر الأنا في رواية "بينما ينام العالم" ممثلة في الشعب الفلسطيني المضطهد والمقاوم في الوقت نفسه، والآخر الإسرائيلي والأمريكي الذي يختلف مع الأنا ثقافيا وفكريا ودينيا، والآخر المشترك معه في الهوية العربية، وقد حاولت الروائية أن تعبر عن واقع العلاقة بين هذه الثنائية عبر جملة من الأنساق الثقافية المهمة.

1-نسق الهوية الثقافية:

تعد قضية الهوية الثقافية من أبرز القضايا الأيديولوجية التي تعالجها رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى في علاقاتها مع الآخر الإسرائيلي، لهذا فإن الروائية تحاول كشف محاولات إسرائيل في سعيها الدائم لتشكيل هوية ثقافية لأفرادها المهاجرين إلى فلسطين من خلال إتباع الأيديولوجية السياسية للحركة الصهيونية التي تهدف إلى "تشكيل هويات الأفراد وصياغة الوعي الجماعي والذوق العام، أو ما يسميها بول ريكور بوظيفة إدماج الأفراد في أيديولوجيا الجماعة" (كاظم، 2016، صفحة 80)، وبذلك فإن الحركة الصهيونية تحاول تشكيل هوية أفرادها المستوطنين في الأرض الفلسطينية من خلال ربطهم بها أيديولوجيا وهذا ما يسمى بالتعمية السياسية، وذلك باستغلال الأحداث السياسية التي شهدتها اليهود من اضطهاد عرقي وديني في الدول الأوروبية، أو ما يعرف بالخرقة في الحرب العالمية الثانية، وهجرة اليهود إلى فلسطين لصالحها من خلال الدعاية السياسية والشعار الزائف ((أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)) (أبو الهوى، 2012، صفحة 69) أي أن أرض فلسطين ليس لها شعب وإنما هي ملك لليهود. وهي مقولة تحاول تدوير الوعي الأيديولوجي لهذه الحركة داخل الفكر اليهودي من أجل تشجيع الهجرة الجماعية لليهود داخل الأرض الفلسطينية، وبهذا أسهم هذا التصور الصهيوني الزائف في خلق صورة تنميطية خاطئة في الوعي الجمعي لليهود بأن فلسطين هي أرض خلاصهم من بطش الألمان وهذا ما جسده شخصيته يولانتا اليهودية التي عانت ويلات الاضطهاد النفسي والجسدي، وفقد جميع أفراد عائلتها في معسكرات الموت النازية "أبحرت ((يولانتا)) وحيدة إلى فلسطين في نهاية الحرب العالمية الثانية. لم تكن تعرف شيئا عن فلسطين أو الفلسطينيين، اتبعت الإجراءات الصهيونية فقط... أرادت الهروب من صيحات الموت التي نعصت أحلامها، من أغاني أبويها وأخواتها التي انطفأت، ومن صرخات موت اليهود التي لا نهاية لها." (أبو الهوى، 2012، صفحة 66) والهويات التي تتشكل بفعل القمع والعنف الاستعماريين، وإقناع أفرادها وهما أنها هويتهم هي من أخطر الأيديولوجيات الثقافية الاستعمارية التي انتهجتها الحركة الصهيونية في تشكيل دولة إسرائيلية على أرض فلسطين، وهذا ما جسده شخصيته الجندي موشيه ذات الفكر الصهيوني في طمأننة زوجته بقوله: "سوف نعيش لنرى الأراضي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن خالية إلا من اليهود.. ستكون فلسطين لنا. سترين ذلك. سننشئ عائلتنا ونبدأ حياتنا الجديدة، نامي الآن، واحلمي بأطفالنا... البريطانيون أولاً، ثم العرب." (أبو الهوى، 2012، صفحة 67) وهذا ما فعله الصهاينة حيث استطاعوا التغلب على البريطانيين وإخراجهم من فلسطين، لتبدأ بعدها حركتهم مع الفلسطينيين والعرب.

كما أوضحت الروائية أن الآخر بدأ التأسيس لهوية ثقافية إسرائيلية انطلاقاً من تفكيك ثلاثية الوحدة الفلسطينية العربية؛ وهي تفكيك وحدة الشعب الفلسطيني، وخرق وحدة الأرض الفلسطينية، وتفكيك الوحدة العربية القومية. حيث بدأت إسرائيل العمل بأيديولوجية تفكيك وحدة الشعب الفلسطيني في الرواية منذ أن كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين من خلال القيام بعمليات إرهابية لإثارة الذعر وتشجيت اتحاد أفراد القرى الفلسطينية وفي مقدمتها أفراد قرية عين حوض الذين لم يقدموا على مساعدة أهل الطيرة، وقرية ((بلد الشيخ)) إثر الاعتداءات والمجازر المتكررة على القريتين، لاعتقادهم أنهم إن لم يذهبوا إلى مساعدة إخوانهم الذين سقطوا، وأن دعوة اليهود إلى هدنة السلام ستجعلهم بمنأى عن الأذى وهذا ما جسده شخصية يحي أبو الهيجا شيخ قرية عين حوض "لم يذهب يحي لمساعدة إخوته الذين سقطوا. اعتقد في سره أن عين حوض ستكون بمنأى عن الأذى، إذا لم

يشارك القرويون في الأحداث. وظن أن عرض السلام الصادق مع اليهود، كفيل بأن يضمن استمرارية حياتهم." (أبو الهوى، 2012، الصفحات 51-52) ليستغل اليهود هذا التمزق بين الأنا المتضخمة من الأفراد الفلسطينيين لتبدأ مأساة الشعب الفلسطيني بأكمله عام النكبة 1948، عام إعلان دولة إسرائيل وبداية شتات الشعب الفلسطيني وهذا ما جسده الروائية من خلال مشهد تهجير عائلة أبو الهيجا من قرية عين حوض إلى مخيم جنين "بينما سار أهالي عين حوض نازحين مستبشرين، سيطر((موشيه)) ورفاقه على القرية ونهبوا البيوت المهجورة... وبينما كان يحيى والآخرين يمشون بخطى الحزن بعيداً عن أرضهم، أنشد المعتصبون: ((هاتكفا))، وهتفوا: ((تحيا إسرائيل (!))." (أبو الهوى، 2012، صفحة 70) حيث صورت الروائية من خلال الشخصيات مشاهد تجاوزت مشهد شعور الفلسطيني بالشتات في الأرض عام 1948 الذي كان يحمل أمل العودة للوطن، لتحطم حرب 1967 عام النكسة ذلك الأمل لينتقل الشعب الفلسطيني بعدها من مرحلة شتات الأرض إلى شتات الهوية التي لم يعد يعرف فيها ذاته ونفسه.

كما جسدت الرواية سعي إسرائيل إلى تفكيك وحدة الأرض من خلال أساليب قمعية استيطانية بدأت بسياسة تهويد القدس انطلاقاً من تغيير معالم الأمكنة الفلسطينية بتهديم البناء المعماري الفلسطيني واستبدالها بتراث أوروبي استمدوه منها فترة استقرارهم هناك " تلك المدينة العتيقة بحدائق مصنوعة من أسرار وأشجار مزروعة في الدم، بدت الآن فاقدة للحياة. حول القدس وفي الضفة الغربية، تجد المستوطنات على قمة كل تل - بمروجها الخضر المشدبة، وسقوفها الحمر التي تنتشر نحو الوديان مثل طفح جلدي للأرض - تتناقض بقسوة مع البيوت العربية المتهالكة في أسفل التل." (أبو الهوى، 2012، الصفحات 425-426) كما أن إسرائيل لم تستهدف الثقافة الإسلامية فقط وإنما شملت الثقافة المسيحية " بدت بيت لحم مثل جنين بالضبط: منهار ومشتعلة، ويتناثر فيها الموت. حتى الكنيسة التي ولد فيها سيدنا عيسى قصفها اليهود، وتفوح منها رائحة الحرائق، مئات الأطفال يجلسون على الأرض، وقد أصبحوا يتامى." (أبو الهوى، 2012، صفحة 119) وهذا دليل على أن إسرائيل لا يقتصر عدائها على الإسلام، وإنما هو عداء على كل ما هو عربي إسلامي ومسيحي يمثل الأرض الفلسطينية. ولم تكن إسرائيل بهذا القدر من الاضطهاد بل حاولت التأسيس لهوية إسرائيلية في مقابل إبادة الهوية الفلسطينية بتبديل اسم فلسطين إلى دولة إسرائيل " في أيار (مايو) 1948، خرج البريطانيون من فلسطين، وأعلن اللاجئون اليهود - الذين كانوا يتدفقون إلى البلاد - عن أنفسهم دولة يهودية، مبدلين اسم الأرض من فلسطين إلى إسرائيل." (أبو الهوى، 2012، صفحة 52) أما أيديولوجية تفكيك الوحدة العربية القومية فقد تجسدت في الرواية من خلال محاولة إسرائيل تجزئة البلاد العربية بنشر الفتنة التي كانت من نتائجها هزيمة الجيوش العربية وترك فلسطين تقاتل وحدها عام 1967 أو ما يعرف عام النكسة، بسبب خيانة بعض القادة العرب للأنا الفلسطينية ودعمها للآخر الإسرائيلي، وسنحاول التفصيل في هذه الجزئية من خلال نسق الخيانة.

وقد كشفت الرواية أن رغم المحاولات الاستعمارية للآخر الصهيوني لبناء ذاته وهويته يبقى بلا وطن، لأن قيام أي وطن يقاس بهويته الثقافية والكيان الصهيوني لا هوية له، وإنما اكتسب عدة هويات بعضها عن طريق العنف والاستلاب للثقافة الفلسطينية ودعم الغرب لها، وبعضها الآخر اكتسبها في مرحلة الشتات من المجتمعات التي كانت تعيش فيها قبل هجرتهم إلى فلسطين. إذاً ليس له جذور تاريخية إذ " أن تاريخهم مصنوع من عظام الفلسطينيين ومن تقاليدهم. والأوروبيون الذين جاؤوا لم يعرفوا الحمص، ولا عرفوا الفلافل ولكنهم، في وقت لاحق، سموها ((طعاماً يهودياً

أصيلاً)). ادعوا أن بيوت حي القطمون في القدس ((بيوت يهودية قديمة))... وصلوا من دول أجنبية، وكشفوا عن عملات نقدية معدنية في أرض فلسطين، من عصور الكنعانيين والرومان والعرب والعثمانيين، ثم باعوها على أنها ((تحف يهودية عتيقة))." (أبو الهوى، 2012، صفحة 388) ورغم أزمة الهوية الثقافية التي تعيشها الأنا الفلسطينية جراء المحاولات المتكررة لطمسها باسم الحق التاريخي من طرف الآخر الإسرائيلي إلا أن لها تاريخ طويل راسخ بجذوره بالأرض، باعتبار فلسطين ليست ملكاً لأحد، وإنما هي من تمتلك الفلسطينيين الذين منحوها حبهم وهذا ما جسده المقطع السردى "نحن نأتي من أمنا الأرض، نمنحها حبنا وجهدنا، وهي، في المقابل، تغذيها. وعندما نموت، نعود إلى الأرض. بطريقة ما، الأرض تمتلكنا... فلسطين تمتلكنا ونحن ننتمي إليها!" (أبو الهوى، 2012، صفحة 102) وأنه أيضاً رغم سعي اليهود محي الأماكن من فلسطين بدمها أو تهجير أبناءها، فإن الأحداث التي عاشها سكانها سوف تروى لأبنائهم ليتوارثوها جيلاً عن جيل "كنا نتجمع على الأرض، ونركز انتباهنا لاستيعاب الحكايات التي يرويها لنا. كان ينسج حكايات الماضي بوضوح وحيوية شديدين؛ فإذا بفلسطين وجميع قراها، التي محت إسرائيل كثيراً منها منذ فترة طويلة، تصبح حية في ذهني." (أبو الهوى، 2012، صفحة 124) وبذلك فإن الرواية كشفت لنا أن الهوية الإسرائيلية المعاصرة ما هي إلا هوية قائمة على الهيمنة الأيديولوجية التي تسعى إلى تذويب الثقافة العربية الإسلامية والمسيحية الفلسطينية في ثقافة واحدة وهي الثقافة الإسرائيلية المخبئة تحت عباءة الثقافة الغربية.

2- نسق الخيانة:

تسرد الروائية سوزان أبو الهوى في روايتها "بينما ينام العالم" حالة الهدوء والسلام التي كان يعيشها الفلسطينيون تحت الحكم البريطاني، وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين، لتنتقل بعد ذلك إلى سرد أسباب هجرة اليهود من أوروبا تحت ذريعة المحرقة الألمانية وما تعرضوا له من اضطهاد أثناء الحكم النازي في أوروبا، بحيث ترسم الروائية الموقف النبيل للفلسطينيين الذين قبلوا عيش اليهود معهم في فلسطين بسلام، وهذا ما يتضح في موقف المخاطرة الذي قامت به عائلة يحيى أبو الهيجا لمساعدة عائلة آري بيرلشتاين التي فرت من النازية، لتجاوز الحدود الأردنية، والدخول إلى فلسطين، ليستقر بها الحال في القدس، حيث استأجرت بيتاً من وجيه فلسطيني. وهذا هو حال كل اليهود وإن اختلفت الطرق التي تمكنت بها من دخول فلسطين. ومع التزايد الكبير لهجرة اليهود استطاعت الحركة الصهيونية تحقيق هدفها المستتر الذي كانت تطمح إليه وهو ضرورة إقامة وطن قومي لليهود، وهو موقف يعكس صورة الآخر بنسق الغدر والخيانة يقول حسن أحد أبناء عائلة أبو الهيجا "لقد عاش اليهود هنا دائماً. وهذا سبب التزايد الكبير جداً في أعداد الموجودين منهم الآن، أليس كذلك؟ وبينما اعتقدنا أنهم يسعون فقط إلى الحصول على ملاذ... أشخاص مساكين يريدون فقط أن يعيشوا كانوا يكذبون الأسلحة لطردنا من بيوتنا!" (أبو الهوى، 2012، صفحة 48) وهذا ما حدث بالفعل عام 1948 عندما "خرج البريطانيون من فلسطين، وأعلن اللاجئون اليهود- الذين كانوا يتدفقون إلى البلاد- عن أنفسهم دولة يهودية، مبدلين اسم الأرض من فلسطين إلى إسرائيل" (أبو الهوى، 2012، صفحة 52) ليرتبط مصير الشعب الفلسطيني بالطرد من أرضه إلى الملاجئ والمنافي واستيلاء اليهود عليها.

كما يظهر نسق خداع ومكر الآخر الإسرائيلي بصورة صريحة في عدة مواضع من الرواية تتجلى من خلال انتهاك إسرائيل لاتفاقية الهدنة بين أمريكا ومنظمة التحرير الوطنية التي تنص على وقف إطلاق النار من أجل حماية المدنيين العزل بشرط خروج منظمة التحرير الفلسطينية من مخيم شاتيلا وصبرا بعد الحصول على ضمانات صريحة " من المبعوث الأمريكي ((فيليب حبيب)) ووزير الخارجية الأمريكي ((ألكسندر هيج))، أن الولايات المتحدة الأمريكية، بسلطة رئيسها ((رونالد ريغان)) وتعهده، ستكفل سلامة النساء والأطفال العزل الذين تركوا في مخيمات اللاجئين. ووقع ((فيليب حبيب)) الوثيقة شخصياً. " (أبو الهوى، 2012، صفحة 325) وبهذا خرجت منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان ظناً منها بأن المدنيين العزل سيكونون بأمان لتوقيع الأمريكيين للوثيقة السلام، وبأن اليهود لن يجازفوا بإظهار حليفهم الوحيد في صورة كاذبة. " (أبو الهوى، 2012، صفحة 356) إلا أن إسرائيل تضرب بعرض الحائط هذه الاتفاقية الأمريكية التي وقعت لحماية حقوق المدنيين العزل، بشنها لإبادة جماعية على مخيم صبرا وشاتيلا الذي راح ضحيتها جميع من كان في المخيم. وهذا يؤكد أن اتفاقية السلام التي وقعتها أمريكا ما هي إلا شعارات تضرع من ورائها نوعاً من الخداع والمكر المراد منه تحقيق مصالح وأطماع أمريكا في الشرق الأوسط. ولطالما كانت صور المكر والخداع هي سمة الآخر الغربي في انتصاره على الأنا العربية، إلا أن الرواية كشفت عبر سردها أن من بين الأسباب التي آلت إليها فلسطين تكمن في الخيانة الداخلية من طرف العرب وذلك بتعاونهم مع القوى الغربية الاستعمارية تجسد هذا النسق في الرواية من خلال الحدث التاريخي حرب حزيران (يونيو) 1967 عام النكسة الذي هزمت فيه الجيوش العربية، وبقاء فلسطين تقاتل وحدها، وهو نسق يضمر بداخله حقيقة أن هزيمة الجيوش العربية لم تكن إلا مسرحية قامت بها الحكومات العربية لامتصاص غضب شعوبها لما حدث لفلسطين عام النكبة 1948، ودليل ذلك أنها لم تقدم هذه الحكومات إلى دعم الفلسطينيين عسكرياً، وإنما عملت على تجريدها من السلاح منذ عام 1848 وهذا ما أقدم عليه ملك الأردن حسين بن طلال وهذا ما أكدته الشخصية البطلة للرواية " سمعت بابا يشكو أن ملك الأردن، حسين بن طلال، نزع سلاح الفلسطينيين، وتركهم عزلاً أمام الصهاينة الذين كانوا يكذبون مزيداً ومزيداً من الأسلحة بمساعدة العرب. " (أبو الهوى، 2012، صفحة 106) كما كشفت الرواية خيانة المملكة الهاشمية لحركة التحرير الفلسطينية بنفيها إلى لبنان إثر انتصار الحركة في بلدة الكرامة في آذار (مارس) من عام 1968 على الجيش الإسرائيلي لتكتسب تأييداً شعبياً كبيراً في الأردن الأمر الذي جعل الحكومة الأردنية تخشى بقائها " فقامت بسحق المقاتلين الفلسطينيين والمدنيين في مجازر فظيعة، اتسم بها الشهر التاسع الذي سمي ((أيلول (سبتمبر) الأسود)). وهكذا أبعدت منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان في عام 1981، تحت قيادة ياسر عرفات. " (أبو الهوى، 2012، صفحة 268) وبهذا فإن نموذج ما فعلته المملكة الهاشمية بالفلسطينيين يعكس خيانة عديد الحكومات العربية للقضية الفلسطينية، التي لم تعد تعترف بالقضايا الوطنية والقومية بقدر تركيزها على إقامة علاقات سياسية واقتصادية مع الآخر الصهيوني والإمبريالي للحفاظ على كرسيها في السلطة.

3-النسق النازي:

يعد النسق النازي من أهم الأنساق الثقافية التي اعتمدتها الرواية في فضائها السردية؛ وذلك من أجل الكشف عن الأساليب القمعية والانتهاكات الإجرامية التي اعتمدتها الأيديولوجية الصهيونية في صراعها مع الأنا

الفلسطينية، إذ نجد أن هذا النوع من النسق مسيطر على جل مشاهد وأحداث الرواية. ولعل هذه الممارسات الإجرامية للحركة الصهيونية تفوق الممارسات الاضطهادية النازية على اليهود. إذ تبدأ أحداث الرواية بمشهد هجرة اليهود إلى فلسطين هرباً من المحرقة النازية التي تعرضوا لها في أوروبا، من خلال دعم أمريكا عسكرياً للحركة الصهيونية لإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين "لدى الصهاينة كميات كبيرة من الأسلحة! لقد جندوا جيشاً هائلاً من اليهود الذين يصلون على متن السفن كل يوم. أنت لا تعرف كل شيء يا حسن. لديهم عربات مدرعة، بل طائرات...! سوف يجعلونها وطناً قومياً لليهود!" (أبو الهوى، 2012، الصفحات 45-46) حيث بدأوا بالتخلص من البريطانيين أولاً، ليأتي دور العرب. لتكون سنة 1948 نهاية الشتات اليهودي وبداية الشتات الفلسطيني، الذي طرد من أرضه وسلبت منه جميع ممتلكاته الخاصة باستخدام أخطر الوسائل الإجرامية في تاريخ البشرية. ومن الأساليب النازية التي وظفتها الروائية لوصف بشاعة واقع الحرب الإسرائيليّة ضد الفلسطينيين، الغيتوا النازي الذي يقابل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين؛ وهي عبارة عن أحياء ضيقة ومحاصرة لعزل الفلسطينيين داخلها تعيش أوضاع اجتماعية مزرية وهذا ما يكشفه المشهد الروائي لحصار مخيم جنين وحظر التجوال داخله "لكن في مخيمنا، كانت قصته هي قصة كل واحد منا: حكاية بسيطة عن النهب، عن تجريد المرء حتى العظام من إنسانيته، عن إلقاءنا كالعقائد في مخيمات للاجئين لا تصلح حتى للفقران، عن تركنا من دون حقوق أو وطن أو دولة." (أبو الهوى، 2012، صفحة 123)

نجد أيضاً جريمة الإبادة الجماعية التي يقابلها المحرقة اليهودية. إذ يجد متلقي الرواية أن الطريقة التي وقعت بها محرقة اليهود هي نفسها الإبادة الجماعية التي شنتها إسرائيل على اللاجئين الفلسطينيين في مخيم صبرا وشاتيلا بלבنا، ومخيم جنين بفلسطين. حيث كشفت الروائية فضاعة ما مارسته السلطة الإسرائيلية على مخيم صبرا وشاتيلا من مشاهد التعذيب، والإعدام، وبقر بطون الحوامل، والقتل، وقصف المخيم باستخدام الأسلحة المحرمة دولياً وهذا ما كشفه المشهد السردى الذي يصف بشاعة ما تعرض له الأطفال بفعل القذائف الفوسفورية الإسرائيلية إذ تستحضر الروائية في هذا المشهد شهادة الدكتور أمل الشماع تقول: "((اضطرت إلى أخذ الأطفال ووضعهم في أحواض من المياه لإخماد النيران)). وأضافت ((عندما أخرجتهم لاحقاً، بعد نصف ساعة من الوقت، كانوا لا يزالون مشتعلين حتى في المشرحة...أخذت الدكتور أمل الشماع الجثث الصغيرة خارج المشرحة لدفنها. وما أفرعها أن الجثث اشتعلت بالنيران مرة أخرى." (أبو الهوى، 2012، صفحة 325) وهذا ما يؤكد أن الفلسطينيين الأبرياء قد دفعوا ثمن المحرقة الألمانية على اليهود "الحقيقة التي لا مفر منها؛ وهي أن الفلسطينيين دفعوا ثمن المحرقة اليهودية. قتل اليهود عائلة أمي، لأن الألمان قتلوا عائلة ((بولانتا))." (أبو الهوى، 2012، صفحة 401)

كما اعتمدت إسرائيل على الأيديولوجية العنصرية النازية لانتهاك حقوق الفلسطينيين السياسية والمدنية لأسباب عرقية ودينية وهذا وضحه المقطع السردى لعمليات التفتيش الإسرائيلية "قدمتا الأوراق والبطاقات التي كانت قد تلقينا تعليمات بحملها منذ حزيران (يونيو) 1967. كانت هذه الأوراق ثبوتية وبطاقات هوية ملونة، بحيث يرمز كل لون إلى هوية حاملها الدينية، أو إلى المنطقة التي يعيش فيها،... كان مطلوباً الحصول على إذن خاص لتلقي العلاج الطبي، أو للحركة التجارية، أو للمرور إلى الجامعة." (أبو الهوى، 2012، الصفحات 174-175) وبهذا فإن النسق

النازي يضمّر بداخله عن الدافع الأيديولوجي للآخر في صراعه مع الأنا الذي تجاوز فكرة محو الهوية الثقافية الفلسطينية والعربية إلى محو الشعب الفلسطيني من الوجود الإنساني.

4- نسق الهيمنة على وسائل الإعلام:

استثمرت الروائية تصريجات وسائل الإعلام الحديثة في روايتها "بينما ينام العالم" كنسق ثقافي، توثيقي لبعض الأحداث التاريخية بين الأنا الفلسطينية والآخر الإسرائيلي والأمريكي، لما له من دور بارز في صناعة القرارات المصرية للشعوب على مستوى الرأي الدولي العام، من خلال نقل الأخبار والأحداث المهمة بين الدول، وبما أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها تعد المتحكم والمحتكر الرئيسي للتكنولوجيا الإعلام الحديثة والحليف الأكبر والرسمي لإسرائيل فإنها منحتها حرية التحكم في هذه الأنظمة لخدمة مصالحها وتوجيه الجماهير المتلقية بما يخدم الفكر الصهيوني.

ففي رواية "بينما ينام العالم" نجد أن نسق الإعلام يعد من أهم القضايا المعرفية الحساسة، ومن أهم الأدوات الفكرية التي تستخدمها إسرائيل وأمريكا لتحقيق مصالحهم وأهدافهم الأيديولوجية في مواجهة الشعب الفلسطيني والعالم العربي، والإبقاء على النظرة الدونية للأنا الفلسطينية وإظهار أمريكا على أنها وسيط السلام في المعركة القائمة بين إسرائيل والشعب الفلسطيني. إلا أنها ساهمت بدعم إسرائيل إعلامياً من خلال تأطير الحقائق المزيفة من أجل دعم موقفها أمام الرأي العام، وأمام الجماهير الشعبية الغربية عندما أقدمت إسرائيل القيام بالمناورات الاستفزازية غير القانونية، وقصف جنوب لبنان لاستفزاز منظمة التحرير الفلسطينية لترد عليها بالمثل، إلا أن منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة اللبنانية قاومت التوجه للانتقام، مما جعل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية المطاف تعقد صفقة مع آريل شارون وزير الحرب الإسرائيلي بوقف القصف من أجل حماية المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ. وبعد أيام قامت إسرائيل بانتهاك الصفقة بعد أن زحف آريل شارون بجنوده لحصار بيروت طوال شهرين قاسين حارماً سكانها الماء والكهرباء والرعاية الصحية. وبعد أن قامت "إسرائيل بتدمير منهج للاتصالات في البلاد" (أبو الهوى، 2012، صفحة 322) خوفاً من أن يرى العالم ما يفعله بالأبرياء. وبالرغم من المعاناة الإنسانية التي مر بها جنوب لبنان من دمار وانتهاك لبنينته التحتية من طرف العدوان الإسرائيلي. زعمت إسرائيل أنها أجبرت على الغزو من أجل أن يعم السلام "نحن هنا من أجل السلام هذه مهمة لأجل السلام." (أبو الهوى، 2012، صفحة 324) في حين أعلنت قناة ال((بي بي سي)) الأمريكية بياناً إعلامياً تقلب فيه الموازين وتسمي الإسرائيليين المنتهكين للصفقة بالمناضلين والمدافعين عن أرضهم وأنفسهم، بينما الذين يدافعون عن دينهم وأرضهم من أصحاب المقاومة الفلسطينية بالإرهاب وهذا ما جسده البيان في الرواية "تقوم إسرائيل برد الضربة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وهي منظمة إرهابية تهدف إلى ذبح اليهود كما فعلوا بالرياضيين في ميونيخ." (أبو الهوى، 2012، صفحة 324) ومن هنا نستشف أن إسرائيل والصحافة الغربية عملت على تضليل الرأي العام حول القضية الإنسانية في محاولة منها لخدمة مصالحهما السياسية الأيديولوجية التي كانت هدفها الضغط على منظمة التحرير الفلسطينية للخروج من جنوب لبنان ونفيها إلى تونس، تمهيداً لمجزرة كبرى خطط لها كل من الحلفاء إسرائيل وأمريكا للقضاء على اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان.

لتصور لنا الرواية لحظة خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، بعد حصولها على ضمانات صريحة من أجل سلامة المدنيين العزل من طرف قادة الولايات المتحدة الأمريكية بسلطة رئيسها رونالد ريغان، اجبر كل من يوسف الذي كان أحد الشخصيات القيادية فيها، ورفقائه على ترك زوجاتهم وأطفالهم وعائلاتهم ورائهم، والرحيل إلى تونس، لتنتقم بعدها إسرائيل منهم عقب خروجهم بحصار جيش آرييل شارون لمخيبي اللاجئين الفلسطينيين صبرا وشاتيلا كانت نتيجتها تنفيذ مجزرة وحشية راح ضحيتها اللاجئين العزل، الذين قتلوا بأبشع الطرق، ووصلت قصة هذه المجزرة للعالم كله الذي أدان العمل الإرهابي لآرييل شارون. لتجد إسرائيل المسوغات والذرائع لهذا الجرم من خلال القيام بعمل إرهابي استفزازي آخر يعيد قلب الصورة السلبية لإسرائيل وأمريكا إلى صورة إيجابية من خلال ضرب السفارة الأمريكية في لبنان، ونسب هذا العمل الإجرامي إلى أحد أفراد منظمة التحرير الفلسطينية مجسدة في شخصية يوسف "كان رجل قد اقتحم بشاحنة محملة بالمتفجرات مجمع السفارة الأمريكية في لبنان، فتسبب في مقتل ثلاثة وستين شخصا وإصابة عشرات آخرين. كان المجمع المثلث الشكل مكانا رهيبا، تناثرت فيه أجزاء الأجساد. عرضت لقطات ناجين وهم في حالة ذهول بفعل الانفجار" (أبو الهوى، 2012، صفحة 346) حيث صرحت إسرائيل أن هذا الهجوم جاء كردة فعل لمجزرة صبرا وشاتيلا. وجاء هذا البيان كله من أجل الضغط على وسائل الإعلام الأمريكية لتغطية الحدث الجديد في مقابل نسيان العالم للحدث القديم، ووقوفه مع إسرائيل. وبذلك أصبحت إسرائيل في غلاف مجلة نيوزويك الأمريكية هي الضحية "إسرائيل تعاني. إسرائيل هي الضحية!" (أبو الهوى، 2012، صفحة 341) ونشرت صور يوسف على وسائل الإعلام بأنه إرهابي فبدلاً من أن يصبح بطلا للمقاومة الفلسطينية في لبنان الذي فقد عائلته استجابة لاتفاقية رونالد ريغان" حيث تمددت زوجته وابنته في مقبرة جماعية تحت أكوام القمامة، في ظل حصانة قاتليهم، في إطار الوعود الزائفة للقوى العظمى، وتحت لا مبالاة العالم تجاه الدم العربي المسفوك." (أبو الهوى، 2012، صفحة 344) أصبح عند الغرب رمزا من رموز الإرهاب العربي، ولعل تقدم الصورة السلبية الإرهابية عن جماعة المقاومة يحمل في طياته نسقا ضمنيا، يتمثل في جعل هذه الصورة السلبية سمة تمثل الشعب الفلسطيني بأكمله، مما ينعكس سلبا على الأقلية الفلسطينية المهاجرة في علاقتها بالجماعة الحاكمة وشعبها الذي ينظر إليهم بمنظور عنصري باعتبارهم جماعة إرهابية تهدد أمن البلاد من خلال تصريح شخصية آمال المغتربة في بنسلفانيا الأمريكية حين نعتها ميلتون دوبر بالإرهاب " قال ((ميلتون)) بصوت عال، خارقا استياء متقيحا بداخلي:

-إرهابيون قدرون!

من زاوية عيني رأيته يستدير نحوي حين صرخ:

أعتقد أننا يجب أن نفرش المكان كله بالقنابل. نتخلص من كل زنوج الصحراء." (أبو الهوى، 2012، صفحة 352)

وفي المقابل بقي ((آرييل شارون)) حرا "يتابع سياسة العنف، حتى وصل في نهاية المطاف إلى أعلى منصب في السلطة في إسرائيل، ليصبح رئيس وزراء الدولة اليهودية" (أبو الهوى، 2012، صفحة 342) بحيث وصفته الصحافة الأمريكية بأنه بطل الحرب الإسرائيلية ورجل السلام" ((المحارب القديم البدين)) و((المخضرم الحشن في حروب إسرائيل

المتعددة)). وتحدث عنه الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة ((جورج دبليو بوش))، بوصفه رجل سلام !
((أبو الهوى، 2012، صفحة 342))

وكذلك الحال رصدت الروائية المعاناة التي يعيشها اللاجئيين الفلسطينيون في مخيم جنين وما يتعرضون له من حصار وقتل وهدم للبيوت والمباني فوق رؤوس ساكنيها، ولعل صمود أهلها جعلها عرضة للقصف والاعتداء المتكرر للعدوان الإسرائيلي، وتستمر الروائية في عرض صورة الإعلام الأمريكي المشوه لأفراد المقاومة الفلسطينية وتصفهم بالإرهاب، إذ أصبحت جنين في الأخبار الإعلامية ((وكر للإرهاب))، ((أرضاً تؤوي الإرهابيين))، ((أرضاً منجبة للإرهاب)). (أبو الهوى، 2012، صفحة 428) أما جرائم القتل والقصف والحصار الذي شهد موت عددا من اللاجئين ومن بينهم الشخصية البطلة "آمال" التي وصلت قصتها إلى العالم جعلتها تمر بحدوء، ووصفت مجازر الكيان الإسرائيلي بجنين في الصحف الأمريكية بأنه: ((لامدحجة في جنين)). ((مسلحون فقط هم من قتلوا في جنين، وفقا لإسرائيل)). (أبو الهوى، 2012، صفحة 463)

وأبرزت الروائية أن هيمنة إسرائيل وأمريكا لوسائل الإعلام لا تقتصر على تغطية الأحداث ونشرها في الصحف العالمية لخدمة مصالحها، وإنما تتجاوز قدرتها على فرض الرقابة على جميع وسائل الإعلام الحديثة كشبكة الإنترنت، ونجد هذا مجسدا في شخصية سارة التي فرضت عليها إسرائيل الرقابة وجعلتها ضمن قائمة الذين يهددون أمن إسرائيل جراء كتابة قصة أمها آمال التي قتلت من طرف جندي إسرائيلي، وشخصية الحاج سالم الذي قتل تحت أنقاض بيته ليراهها العالم. وهذا النوع من الهيمنة يؤكد أن جميع وسائل الإعلام الحديثة ما هي إلا وسائل تخدم مصالح الآخر الغربي والإسرائيلي معا من أجل بقاء نفوذها على أرض فلسطين.

خاتمة:

إن العلاقة بين الأنا والآخر تتسم بالحركة والتغير، تبعا لتنوع المرجعيات المؤسسة لها من مرجعية أيديولوجية، أو حضارية، أو دينية، أو فكرية. هذا ما جعل كل منهما يحمل طبيعة ثنائية قائمة إما على الصراع أو التعايش الثقافي. ساعد الإسلام في عصرنا من أهم الأسس العقائدية والأيدولوجية بدون منازع في تغيير مجرى الذات العربية من الهامش إلى المركز الثقافي العالمي.

تعد رواية "بينما ينام العالم" لروائية سوزان أبو الهوى من الخطابات الثقافية التي تستحضر نسق الهوية القائم على الصراع بين الأنا الفلسطينية والآخر الإسرائيلي في بعده الثقافي والأيدولوجي، إذ تنطلق الروائية في خطابها من مرجعية تاريخية تجمع بين الوعي الثقافي الفكري والتشكيل الروائي القائم على عنصر التخيل للكشف عما يضمه الواقع الثقافي عن الآخر المضاد.

أبرزت الرواية أن من أهم الأسباب التي جعلت الشعب الفلسطيني لا يحقق نصره على الآخر، راجع إلى خيانة عديد الحكومات العربية للقضية الفلسطينية ووقوفها مع مؤامرات وقرارات الآخر في تقرير مصير الأنا الفلسطينية. التي كانت ظاهرة منذ عام النكبة 1948 حيث لم تتحرك الدول العربية للمعارضة عندما أقدمت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين.

لمحل الإحساس المفعم بالحزن والأسى الذي أحدثته رواية "بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى في نفسية القارئ كان بسبب الأحداث والمشاهد التي استحضرتها الروائية من عمق المأساة التي عاشها الشعب الفلسطيني على مر سنين طويلة من التهجير والتشريد ومحاولات لسلب الهوية العربية والإسلامية.

في ظل ما تشهده كتب التاريخ من تحريف وتزييف للحقائق، حيث لم تعد كتابته تخضع لمبدأ الصدق والإنسانية، إنما أصبحت تخضع لأيديولوجية الآخر المنتصر والأقوى في جميع الميادين، تبعاً لما يخدم مصالحه ومخططاته الخاصة، لهذا تعد رواية "بينما ينام العالم" بمثابة السجل التاريخي الذي يحفظ للأجيال تاريخها وهويتها العربية التي يحاول الإسرائيلي طمسها من واقع الأرض المحتلة. وبذلك فالرواية الفلسطينية رغم الطابع التخيلي على مستوى عناصر السرد إلا أنها أصبحت وسيلة الأديب والناقد في كشف الحقائق المزيفة لليهود من مكر وخداع، والأداة الثقافية لحفظ تاريخ الأمم المهمشة.

فجد أن النسق النازي في الرواية يؤكد أن الحركة الصهيونية بوسائلها الإجرامية ما هي إلا امتداد للاستعمار الإمبريالي بأسلحة أكثر تطوراً، وأن فكرة المحرقة اليهودية ما هي إلا آلية أيديولوجية استغللتها الحركة الصهيونية لبناء وطن قومي لها في فلسطين، وفي الوقت نفسه لتجد من خلالها المصوغات والتبريرات لحركتها الاستعمارية على أرض فلسطين.

كشفت رواية "بينما ينام العالم" أن وسائل الإعلام الحديثة تسعى إلى تقديم الأحداث والقضايا لا من واقعها وإنما من وجهة نظر إسرائيل وأمريكا ومحاولة إقناع الجمهور الغربي عن طريق الدعاية السياسية الإعلامية أن الشعب اليهودي شعب مضطهد أيديولوجياً في بلده من قبل إرهاب المقاومة الفلسطينية، مما أدى إلى ظهور خصوم جماهيري في الغرب تعامل الأقلية الفلسطينية المهاجرة من بلدها بعنصرية على أساس أنهم إرهابيون يهددون سلم وأمن البلاد. ومن ثم فإن الإعلام الغربي وخصوصاً الأمريكي قائم على مبدأ الهيمنة والسيطرة، كما أنه يفقد مصداقيته الإنسانية والسياسية اتجاه القضية الفلسطينية.

المراجع

ابراهيم خليل الشبلي. (2019). الذات و الآخر في الرواية السورية. عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع.

ابراهيم فتحي. (1986). معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين. صفاقس، تونس: التعاضدية العمالية للطباعة والنشر.

أحمد عبد الحليم عطية. (1997). جدل الأنا والآخر: قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، ط 1. مكتبة مدبولي الصغير.

إسماعيل عرفة. (2021). عصر الأنا، ط 2. الكويت: دار ديوان للنشر والتوزيع.

- الطاهر لبيب. (أغسطس، 1999). صورة الآخر ناظرا ومنظورا اليه، ط 1. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- سمير الخليل. (2023). النقد الثقافي والممارسات الثقافية للخطابات، ط 1. عمان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- سوزان أبو الهوى. (2012). بينما ينام العالم، تر: سامية شنان تميمي. الدوحة، قطر: دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر.
- عبد الله الغدامي. (2014). النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 6. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- محمد ابراهيم الفيومي. (1993). الاستشراق رسالة استعمار: تطور الصراع الغربي مع الإسلام. القاهرة: دار الفكر العربي.
- محمد الداوي. (2013). صورة الأنا والآخر في السرد، ط 1. القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.
- محمد راتب الحلاق. (1997). الأنا والآخر. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- محمد عابد الجابري. (يونيو، 1989). اشكاليات الفكر العربي المعاصر. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- نادر كاظم. (2016). الهوية والسرد. الكويت: دار الفراشة للنشر والتوزيع.
- نادر كاظم. (2004). تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- يوسف محمد عبد الله عبده. (جويلية، 2021). القضية الفلسطينية في مقالات إبراهيم العجلوني، ع 1، مج 23.